الفصل الرابع

الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت

تختزن الذاكـرة بعض الأصوات، وبعض الكلمات والانطباعات، التى يصعب على المرء أن ينساها مهما مر عليها من زمن أو تقلبت ظـروف وحالت أحوال. من هذه الأصوات التى لا يزال صداها يتجاوب فى حنايـا النفس، صوت الراحـل العظيم الإمام الأكبر شـيخ الجامع الأزهر الأسـبق: الشـيخ محمود شـلتوت – جـزاه الله خير الجزاء، وأجزل له العطاء كفاء ما بذل وقدّم.

وقد تتضافر بعض العوامل والملابسـات التى تعمل على تثبيت صورة ما على هيئة معينة، ومن هذه العوامل أن حاسـة السـمع، وهى من أهم حواس الاسـتقبال، مثلت فى وقت من الأوقات النافذة الرئيسـية لمعظم المدخـلات الفكرية والثقافيـة، فقد كان الراديو أهم وأنسـب آلة للقيام بهذا الدور فى ذلك الوقت. ثانيا: تواكبت هذه الفترة – بالنسبة لى– مع فترة الطفولة والصبا التى تتميز عادة بالتأثر الشـديد سـلبا أو إيجابا. ثالثا: المسـاحة التى شـغلها صـوت الرجل فى تلك الفـترة المبكرة من أوائل السـتينيات، تتعلق بأشـواق الإنسـان العليا نحـو خالقه ونبيه ودينـه وما ينبغى أن تكون عليـه حياته، وفقا لما يصدر عن هذه المصادر

الثلاثة، التى تمثل خيوط النور، الذى يهتدى به الإنسان فى مسيره ومصيره. لكل ذلك وغيره، أجد أنه من الصعب أن أنسى نبرات صوته المؤثرة، وأحاديثه المقنعة، ومعانيه التى تلقى فى النفس صدى طيبا. وتأثيرا عذبا قويا. وكان ذلك دأبه فى كل نشاط فكرى أو دينى يضطلع به فضيلته. ويعبر عن ذلك أحسن تعبير وأصدقه أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومى قائلا: يتحدث الشيخ فى الإذاعة عن موضوع ما، فيصوغه صياغة واضحة سافرة، يصل بها إلى قلب كل سامع، مهما كانت درجته متواضعة فى الفهم، ثم يتحدث عن الموضوع نفسه فى صحيفة يومية فيعلو بمستواه إلى درجة القارئ الذى يمضى بخطواته الأولى فى طريق الثقافة، فإذا انتقل الحديث إلى مجلة شهرية وجدت الحديث نفسه قد زاد عمقا واتساعا على وضوح معانيه، وسفور وجهه، أما إذا انتقل به إلى ميدان التخصص فألقاه على طلبة الدراسات العليا للتشريع أو حاضر به فى مجمع علمى، فإنك ترى العمق العميق والفهم الدقيق، والاستشفاف النافذ، والرأى الجديد! وباختصار فقد كان الرجل بلاغيا كبيرا يراعى مقتضى الحال زمانا ومكانا وإنسانا. هكذا كان الرجل بين أبناء جيله[1]. ولا يستغرب ذلك من رجل يصف رسالة الأزهر، الذى تولى مسئوليته - كما يذكر الأستاذ العقاد رحمه الله - فى كلمات معدودة

(١) د. محمد رجب البيومى (٢٠٠٥). من مقدمة كتيب بعنوان «نظرات إسلامية: من ثمار الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق». هدية مجلة الأزهر لشهر ربيع الآخر لعام ١٤٢٦هـ.

دالة بقوله: إنه معهد الدين وحصن اللغة المكين. ويضيف الأستاذ العقاد: ولقد عرفنا الشيخ الأكبر سنوات فى مجمع اللغة العربية فتعودنا أن نعرفه «قرآنيا» فى دراسته لأسرار اللغة، قبل أن نعرفه «لغويا» فى دراسته لأسرار القرآن. وكنا نسمعه يقول: إن القرآن معجز بما هو به قرآن. ويعنى بذلك نسقه الذى ينظم ألفاظه ويوحى من معانيها بما ليس فى مفردات الكلم ولا فى أجزائه التى يقتضيها الإعراب فى كل عبارة. فليست الكلمة الواحدة هى محل الإعجاز... ولكنه نسق دقيق يتخطى لوازم العلاقة بين الألفاظ فى النحو والصرف إلى لوازم العلاقة بين المعنى والوجدان وبين الوحى والبصيرة، بما لا تدركه ولا تبلغ إليه بلاغة الإنسان... وبهذه النظرة «القرآنية» عمل الشيخ الأكبر فى تنظيمه للدروس بمعاهد التعليم، كما عمل على هذه الهداية فى علاقته بالأمم الإسلامية وعلاقته ببلاد العرب أجمعين[1].

هذا، وقد ترك الرجل من الآثار الفكرية والاجتهادات الدينية ما يعد- بحق - مفخرة وعلامة مميزة فى العصر الحديث، ومن هذه الآثار:

- ☐ الإسلام عقيدة وشريعة.
- ☐ من توجيهات الإسلام.
- ☐ الفتاوى.

(١) عباس العقاد (١٩٩٩). الإسلام والحضارة الإنسانية. نهضة مصر للطباعة والنشر. ص ٤٢.

وتضم هذه الكتب الثلاثة معظم آثار الرجل، وقد تولت طبعها دار الشروق بالقاهرة.

□ إلى القرآن الكريم

وقد ظهرت طبعته الأولى فى سلسلة كتاب الهلال. العدد رقم ١٥٤فى شهر شعبان الموافق للخامس من يناير ١٩٦٤. ثم أعيد طبعه بالعدد رقم ٣٩١ الموافق لرمضان عام ١٤٠٣ / يولية ١٩٨٣. ثم ظهر الكتاب بعد ذلك فى دار الشروق.

□ يسألون

وقد طبعته «الإدارة العامة للشئون الثقافية» ضمن سلسلة «مختارات الإذاعة» عام ١٩٥٨. ويمكن تصنيف محتوياته إلى موضوعين. أولهما: الوصايا العشر، وقد اختصته «دار الشروق» بالقاهرة بطبعة خاصة. أما الموضوع الثانى فقد تمثل فى إجابات شافية. لمجموعة من الأسئلة، التى تهم الناس، وتشمل كثيرا من الشئون الدينية والحياتية. وهو يستند فى وضعه لهذا الكتاب على أسس إسلامية ومنطقية وتاريخية من اتّباع النبى صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح، فيقول: كان المسلمون يسألون النبى فيجيبهم. وكانوا يسألون خلفاءه وأصحابه فيجيبونهم. والنفوس راضية، والقلوب مطمئنة، والألسنة شاكرة. والامتثال شأن السائلين، والتحرى وقصد وجه الله شأن المسئولين، ومن مبادئ الإسلام

فى هذا الشأن بالنسبة لمن لا يعرف قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]. وبالنسبة لمن يعلم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾[2]. فالعبادة فى أصلها، وكيفيتها، وصحتها رسم من الله لا شأن للإنسان فيه إلا أن يعرفها كما وردت، وإلا أن يفعلها أو يُعَلِّمَها كما عرف. وليس له أن يتصرف فيها برأيه وهواه، فيَضل ويُضل. ويحمل فى عنقه تبعة ضلاله، كما يحمل تبعة إضلاله. وهذا هو واجب السائلين، وذاك هو واجب المسئول[3].

٦ منهج القرآن فى بناء المجتمع.

وقد ظهر ضمن مطبوعات كتاب الهلال، العدد رقم ٣٧٠ والكتاب، كما هو ظاهر من عنوانه يعالج موضوعات شتى فى ضوء المنهج القرآنى ومنها: أساس الإسلام فى رباط المجتمع. التضامن الاجتماعى فى نظر الإسلام. الأموال فى نظر الإسلام. أساليب القرآن فى الدعوة إلى الإنفاق، الدين والاجتماع. والعلم والتعليم فى خدمة المجتمع، وغير ذلك من موضوعات.

هذا. بخلاف محاولته السديدة فى تفسيره للقرآن الكريم، الذى طبق

(١) سورة الأنبياء الآية ٧.

(٢) سورة البقرة الآيات ١٥٩ - ١٦٠.

(٣) الشيخ شلتوت (١٩٥٨). يسألون. ص ١٢٩.

فيه منهج التقريب بين المذاهب المختلفة ليصبح تفسير كل المسلمين، وفى ذلك يقول الدكتور محمد البهى - رحمه الله - فى تقديمه له ما يلى: التفسير الذى نقدمه اليوم للمسلمين هو تفسير للمسلمين أجمعين، لا لمذهب معين من المذاهب الفقهية، ولا للون من ألوان العقيدة الكلامية، ولا لاتجاه خاص من اتجاه أهل الظاهر أو أهل الباطن.

بيد أن أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومى - رحمه الله رحمة واسعة - يأخذ عليه أنه لم يشمل كل ما تعرض له من آيات السور القرآنية، إذ جعل يختار من نصوص السورة ما يتصل بطابعها العام، بمعنى أنه ترك آيات كثيرة دون تفسير، ومعنى ذلك أنه لايغنى عن سواه فيما تعرض إليه من السور. ثم يضرب الدكتور البيومى مثلا بتفسير المنار فيقول: فأنت مثلا إذا قرأت تفسير المنار وهو معنى بما عنى به تفسير الشيخ شلتوت من مراعاة الوحدة ومن التعقيب على ما لا يرتضى من أقوال السابقين، فإنك تجده يشمل السورة جميعها، ألفاظا وتركيبا وغرضا، بحيث يجوز أن يغنى عن سواه، أما تفسير الشيخ شلتوت فاكتفاء بالبعض عن البعض، ورسم لإطار عام لا يشمل جزئيات كثيرة تتدرج فيه وتأوى إليه، وهو جهد كبير لا محالة، ولكنه فى مضمونه الصريح تعقيب وتوجيه، ولا ننكر أن الشيخ شلتوت قد اختص مشكلات العصر بمزيد من التحليل، وأوغل فى إيضاح بعض ما اختلطت مراميه لدى سابقيه، فاهتدى إلى يسر حميد، ولكن المفهوم

من تفسير كتاب الله لا ينحصر فى ذلك وحده، بل على من يتصدى لتفسير كتاب الله فى مؤلف يحمل عنوان «تفسير القرآن الكريم» أن يقف عند كل آية ليأخذ القارئ نصيبه الأوفى من الكتاب المبين[1].

من أدب الصيام فى آثار الإمام

أفرد الشيخ فى كتابه القيم «من توجيهات الإسلام» جزءا كبيرا حول رمضان والصيام وليلة القدر بعنوان «فى رحاب رمضان» نقتطف منه بعض أزاهيره، فقد جاء فى إحداها تحت عنوان «اصطفاء شهر رمضان» ما يلى: على سنة الاصطفاء اختار الله شهر رمضان، واصطفاه على سائر الأزمان، فهو الشهر الوحيد الذى صرح باسمه فى القرآن الكريم، وهو الشهر الوحيد الذى أفاض الله فيه أكثر نعمه على عباده، وهى كتابه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. هذا الكتاب الذى كان من أبرز تعاليمه أن سما بالعقل الإنسانى عن الوثنية المظلمة، وعن صفوف المربوبية والخضوع لغير الله، إلى التوحيد الخالص الوضاء. فأصبح الإنسان لا يعرف إلا ربا واحدا، له تعنو الوجوه، وإليه تنيب القلوب.

ثم يقول تحت عنوان «شرعية الصيام فى شهر رمضان»: وإذا كان مما ألفه الناس أن يحتفلوا بذكرياتهم العظيمة ذات الأثر الخالد فى حياتهم،

---

(١) محمد رجب البيومى (٢٠٠٥). من مقدمة كتيب بعنوان: نظرات إسلامية: من ثمار الشيخ محمود شلتوت. هدية مجلة الأزهر لشهر ربيع الآخر ١٤٢٦ هـ. ص ٢٦.

حين يمرون بأمكنتها، أو تمر عليهم أزمنتها، فإن الله سبحـنه وتعالى قد رفع شـأن رمضان، فرسم بنفسه أسلوب تكريمه، ومظهر تعظيمه، فافترض على المسـلمين فى جميع بقـاع الأرض صومه، وجعله ركنا من أركان دينهم وعنصرا من عناصر الشـخصية الإسـلامية، فصوم رمضان «عبادة تلتقى فى هدفها مع أهـداف القرآن فى تربية العقول والأرواح وتنظيم الحياة» يوحد بين المسـلمين فى أوقات الفراغ والعمل، وأوقات الطعام والشـراب، ويفرغ عليهم جميعا صبغة الإنابة والرجوع إلى الله. ويرطب ألسـنتهم بالتسبيح والتقديس، ويعفها عن الإيذاء والتجريح، ويسـد عليهم منافذ الشـر والتفكير فيه، ويملأ قلوبهم بمحبة الخير والبر لعباد الله، ويغرس فى نفوسهم خلق الصبر الذى هو عدة الحياة، وهكذا يريد الله أن يكون الإنسان.

ثم يذكـر فى موضع آخر كلاما طريفا، ينم عن سـليقة أدبية، وذلك تحت عنوان «الإيحاء الشـعبى لرمضان» يقـول فيه: لم يكن رمضان إلا اسما زمنيا لشـهر معروف فى السنة القمرية، يقع بين شعبان وشوال، ولكـن له عند المسـلمين إيحاء تهتز لـه قلوبهم وتنشـرح به صدورهم وتسمو به أرواحهم، وتكثر خطوط إيحائه كلما اتسعت معارف الإنسان بخصائصـه وحوادثه وآثاره. والحق أن إيحاء رمضان امتد واتسـع حتى أدركه الأطفال وهم فى الشوارع يلعبون، فهم لا يكادون يلهمون بحلوله حتى تراهم متجمعين وقد رتلوا الأغانى، وحملوا المصابيح وجاسوا خلال

الديار فى الأزقة والشوارع، معلنين الفرح والابتهاج بحلول رمضان، وكأنهم لمحوا من وراء الحجب ومن حيث لا يشعرون ما يحمله رمضان من النور والهدى، ومن معنى التآلف والترابط، فرمزوا إلى كل ذلك فى حفاوتهم الطبيعية البريئة بالتآلف والتجمع وإضاءة المصابيح.

ثم يسترسل فى موضوعه تحت عنوان «شهر الثورة السماوية على الباطل» فيقول: وإذا كان لرمضان هذا الإيحاء الروحى من جهة ما فرض فيه من عبادة الصوم وترك المشتهيات، فإن له من جهة أحداثه التى وقعت فيه إيحاء بهذه الثورة السماوية التى زلزلت عرش الباطل وهدمت قوائمه وأركانه، ذلك الباطل الذى أفسد على الإنسان عقله فأنكر ربه وخالقه، وألّه ما لا يسمع ولا يبصر، فعبد الشمس والقمر، وعبد الأصنام والأوثان، واتجه فى شدته وكربه إلى ما لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ذلك الباطل الذى أفسد على الإنسان عاطفة الرحمة وملأ قلبه جبروتا وقسوة، فقتل الأبناء وهتك الأعراض واستلب الأموال واستذل الضعفاء وسخر الفقراء ولم تجد الرحمة إلى قلبه منفذا وسلب الإنسان خاصية الإنسان، ذلك الباطل الذى أفسد على الإنسان تصوره للحياة فظنها مادة عليها يتهالك ولها يجمع وبشهواتها يلهو. أغضب هذا الباطل رب السماء، ولم ترض الحكمة الإلهية ببقاء الإنسان على هذه الحال، يكتنفه الفساد من كل جانب، فأطلقت نور الحق فى شهر رمضان على يد محمد صلى الله عليه وسلم، ونزل عليه توجيها له نحو القضاء على الفساد:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾[1].

وبذلك نزل الكتاب المبين يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا، فكان هديا للبشرية، وفرقانا ميزت به الخبيث من الطيب، وعرفت به كلمة الحق فى الألوهية والرسالة، والبعث والجزاء، وفى علاقة الإنسان بأخيه الإنسان فى الحياة الدنيا، وهكذا كان إيحاء رمضان[2]: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾[3].

من فقه الصيام فى أجوبة الإمام

وردت إلى الشيخ جملة من الأسئلة، التى تتكرر كل عام، حول فقه الصيام، كلما أقبل رمضان، ومن بينها: ما حكم الصيام إذا اكتحل الصائم، أو إذا قطّر فى عينيه، أو إذا مسّها؟ وما حكم الصوم إذا كان عند الصائم بواسير واحتاج فى تخفيف آلامها إلى دهانها أو إلى استعمال الأقماع وهو صائم ؟ وما حكم الاحتقان الشرجى أو الجلدى أو العِرقى فى حال الصوم ؟ وما حكم الصوم إذا طلع على الصائم النهار وهو لم يغتسل من أثر الليل ؟ وما حكم الأكل أو الشرب عند النسيان؟ وما الحكم

(١) سورة العلق الآيات ١ – ٥.

(٢) الشيخ شلتوت (١٩٨٣). من توجيهات الإسلام. دار الشروق بالقاهرة. الطبعة السابعة. ص ٣٠٦..

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٥.

إذا غلب الماء ونزل إلى جوف المتوضئ ؟ وما حكم الأكل على ظن أن الفجر لم يطلع ثم تبين للآكل أنه طلع، أو الأكل على ظن أن الشمس قد غربت ثم تبين أنها لم تغرب؟

وتبدو عبقرية الشيخ، فى الإجابة عن هذه الأسئلة، فى الاختصار الشديد والوضوح السافر، وهذه الخصيصة من شيم العلماء المتمكنين من علمهم، فكل همهم إصابة الهدف دون مواربة أو التفاف. يجيب الإمام بقوله: هذه جملة من الأسئلة يكثر دورانها على الألسنة، وقد يتلقى الناس فيها أجوبة مختلفة تحدث عندهم بلبلة واضطرابا، ونحن إذا نظرنا إلى معنى الصوم المفاد من قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾[1]؛ وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾[2] علمنا أن الرفث إلى النساء مباح ليلة الصيام حتى مطلع الفجر، ومن ضرورة ذلك أن يدرك الفجر الصائم وبه أثر الرفث لم يغتسل، ومن هنا كان صومه صحيحا ولا تأثير للجنابة عليه: وقد حكت فى ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم زوجان من أزواجه: عائشة وأم سلمة، ولا فرق فى صحة الصوم بين جنابة الاتصال، وجنابة الاحتلام.

أما من أكل أو شرب ناسيا أو مخطئا فإنه لا قضاء عليه ولا كفارة وقد صح فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «من نسى وهو صائم فأكل

(١) سورة البقرة الآية ١٨٧

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٧

أو شرب فليتم صومه؛ فإنما أطعمه الله وسقاه». وقوله: «إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». ومنه يُعلم حكم من غلبه الماء ونزل إلى جوفه وهو يتوضأ. فصومه أيضا صحيح ولا شيء عليه.

وإذا كان مبدأ الصوم هو طلوع الفجر، وغايته غروب الشمس فإن من أكل أو شرب على ظن أن الفجر لم يطلع وهو طالع، أو على ظن أن الشمس غربت وهى لم تغرب يكون قد أكل عمدا فى وقت الصوم، فيفسد صومه، ويجب عليه القضاء، وإن أخطأ فى الوقت لم يكن منتهكا لحرمة الصوم فلا تجب عليه كفارة، وهو أشبه بمن ظن دخول وقت الصلاة فصلاها، ثم تبين أنه لم يدخل. فعليه الإعادة.

وإذا كان من محظور الصوم الأكل والشرب – وحقيقتهما دخول شيء من الحلق إلى المعدة، والمعدة هى محل الطعام والشراب من الإنسان، وقالوا إنها كالحويصلة من الطائر، والكرش للحيوان – كان المبطل للصوم ما دخل فيها بخصوصها. سواء أكان مغذيا أم غير مغذ. ولابد أن يكون المنفذ المعتاد؛ ومن أجل هذا فما دخل فى الجوف – ولكن لم يصل إليها – لا يفسد الصوم.

فالحقنة الشرجية يدخل بها الماء فى الجوف. ولكن لا يصل إليها، فلا تفطر والحقن الجلدية أو العِرقية يسرى أثرها فى العروق ولا تدخل محل الطعام أو الشراب. فلا تفطر. نعم قد يحدث بعضها نشاطا فى الجسم وقوة عامة، ولكن لا تدفع جوعا أو عطشا؛ ومن هنا لا تأخذ حكم الأكل أو الشرب وإن أدت شيئا من مهمته.

وإذا كان هذا هو الأصل فـي الإفطار، وكانت الحقن بجميع أنواعها لا تفطـر الصائـم – فإن أقمـاع البواسـير أو مراهمهـا أو الاكتحال، أو التقطـير فـي العين أو مسّـها – كل ذلك – لا تأثير لشـئ منه على الصـوم؛ فهو ليس بأكل فى صورته ولا فى معناه، وهو بعد لا يصل إلى المعدة محل الطعام والشراب.

وفـي اعتقادى أن المحافظـة على روح الصوم باسـتحضار المراقبة، وأن المسـلم وهو صائم فى ضيافة مولاه، وأن هذه الضيافة الإلهية تقضى عليـه التوجه إليه فى ظاهره وباطنه فلا يرتكب ما يغضبه، ولا يدنس نفسـه بما ينافى تقـواه والمحافظة على هذا الوضع تسـمو بالنفس عن الاشتغال بأن مثل هذه الشئون تفسد الصوم أو لا تفسده، وتجعل الصائم فى حصن عن كل ما يريبه فى صحة صومه؛ وليس الصوم – الذى يريده الله، ويعلّـق به التقوى – مما يخفى شـأنه إلى هذا الحد الذى نراه بين الصائمين، وبينهم وبين المفتين، والله ولى التوفيق والهداية[1].

هذا هو رمضان وهذا هو إيحاؤه: ومن ثم فإن من واجب المسلمين– فى رأى الشـيخ – أن تنفتح له قلوبهم، وتصغى إليه أفئدتهم، وأن يسـدوا به منافذ الإيحاء الشـيطانى، الذى تملكهـم وألهاهم عن إيحاء الخير ففرق كلمتهـم وأضعف سـلطانهم، وأفسـد أخلاقهم، وأمـات الغيرة فى نفوسـهم، وسـلبهم شـخصيتهم الكريمة، وصـارو إلى خليط من

(١) الشيخ شلتوت. (١٩٥٨). يسألون. ص ١٣٣.

الشخصيات لا تعرف جنسيته ولا يعرف دينه، شخصية لا شرقية ولا غربية، ولا إسلامية ولا مسيحية ولا يهودية.

جدير بهم وقد استظلوا بظل رمضان أن يفقهوا إيحاء رمضان، وأن يذكروه، وأن يعملوا بمقتضاه عسى أن ترجع إليهم الكلمة ويعود إليهم السلطان وتستقيم لهم الحال، وعندئذ يكون استقبالهم لرمضان، وابتهاجهم برمضان، استقبالا للعزة والكرامة. وابتهاجا بالمجد والعظمة[1].

ليلة القدر

جرت عادة الناس فى عهودهم الأخيرة أن يقيموا فى ليلة السابع والعشرين من رمضان احتفالا بليلة القدر، ويرون أنه يحقق معنى القيام الذى رغب فيه الرسول بقوله: «من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر الله له ما تقدم من ذنبه»، ويجرى على ألسنة كثير من الناس فى خصائص تلك الليلة ما لا يتصل بمكانتها الروحية، التى ربطت بين السماء والأرض وبين عالم الغيب والشهادة، والتى صرح بها وأشار إليها القرآن، لسان الحكمة وقانون الخلود وعلاج الأدران ووسيلة الطهر، وقد كثر الكلام عليها فى ذلك، حتى عند العلماء، كثرة خرجت فى معظم ما قالوا أو كتبوا إلى حد صرف الناس عن تدبر جانبها الروحى إلى الاشتغال بظواهر مادية، ومفاجآت حسية، لا تعنى بها الروح ولا يهتز لها القلب.

---

(١) الشيخ شلتوت (١٩٨٣). من توجيهات الإسلام. دار الشروق بالقاهرة. ص ٣٠٧.

ثم يهمس لنا فى كلمات عذاب حديثا يمس شغاف القلوب قبل أن يخلب الألباب فيقول: وقد أردت أن أتحدث عما أراه وأطمئن إليه فى هذا الشأن، وقد اخترت لهذا الحديث ساعة من سعات الليل الذى تخضع فيه الأصوات، وتسكن لكائنات، وتنطلق الأرواح، تسبح فى ملكوت الأرض والسماوات، وقد زالت من أمامنا العقبات، ورفعت بينها وبين مقصدها الأسمى حجب الماديات، وقصر بينهما شاسع المسافات، وهناك تتجلى الآيات، وتفيض بحار الرحمات، وتنتعش النفوس بما تتلقى من دروس، تكون لها فى حياتها الرائد الذى لا يضل، والضوء الذى لا يخبو.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ (١).

فى سكون الليل يتحنث النبى ويتعبد، ويسرى به ربه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ويأمره بالتهجد فى الليل عسى أن يبعثه مقاما محمودا، وفى الليل يتلقى من ربه وهو فى خلوته يناجيه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ (٢).

---

(١) سورة القدر.

(٢) سورة العلق الآيات ١ - ٥.

ويفاجئ محمد الناس بهذا الخطاب الإلهى الكريم، الذى يشعرهم بفضل الله عليهم فى تربيتهم المادية، وتربيتهم العقلية ويصير هذا الخطاب الذى لا يألفون شغلهم الشاغل، فيصفونه بأنه شعر أو سحر أو كهانة، وتكون مهمة الوحى إذ ذاك تأكيد أنه حقيقة صادرة عن الله لهداية الناس، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فينزل: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾[1]. وينزل: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾[2]. وتنزل السور المعروفة فى القرآن باسم «الحواميم» ﴿ وكلها تؤكد أنه «تنزيل من الله العزيز الحكيم»، وتزيد سورة الدخان فتذكر الليلة الذى نزل فيها وتخلع عليها صفة الخير والبركة، تلك الصفات التى وصف بها القرآن: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾[3] ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[4].

وفيما بين هذا وذاك تجئ سورتنا، وتذكر الليلة أيضا، وتخلع عليها صفة القدر والشرف التى هى صفة القرآن عند الله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[5].

---

(١) سورة القلم الآيات ١ – ٢.
(٢) سورة النجم الآيات ٢ – ٥.
(٣) سورة الدخان الآية ٣.
(٤) سورة الأنعام الآية ٩٢.
(٥) سورة القدر الآية ١.

ويتعـرض فضيلته لمعنى «القـدر» فيقـول: وإذا كان معنى الإنزال والتنزيـل يتعلق كلـه كما نرى بالقرآن الكريم – فليس من السـهل أن يكـون المراد بالليلة المباركة غير الليلة التى أنزل فيها القرآن، كما أنه ليس من السهل أن يكون المراد بـلقدر غير الشرف الذى اكتسبته الليلة مـن نزول القـرآن فيها، وعلى الرغم من ذلك يقـال: إن الليلة المباركة هى ليلة النصف من شـعبان، وإن القدر هـو تحديد ما يجريه الله على عباده من الأرزاق والأعمار والأحداث الكونية، وأين هذا من جو الآيات التى ذكرنا وأين هو من موقف القوم فى شـأن ما فوجئوا به من خطاب الرسالة والوحى[1]؟

❑❑❑

(١) المصدر السابق. ص ٣٢٩.